موقع السؤال الإيكولوجيّ
في المتن الماركسيّ وراهنيّته

The position of the ecological question in the Marxist text and its topicality

د. خالد شهبار

جامعة ابن طفيل

المغرب

khalid_chahbar@hotmail.com

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

إلى السّيطرة على الطّبيعة والتّحكّم فيها؛ بل وأيضا لكون المشاكل البيئيّة لم تكن مطروحة في عصره، أي خلال فترة الانتقال من المجتمع الإقطاعيّ إلى المجتمع الرّأسماليّ.

2-1- النّزوع البروميثيوسيّ والبيكونيّ لدى ماركس:

يرى هذا التّصوّر أنّ نصوص كارل ماركس تكشف بوضوح عن قناعته الرّاسخة بكون مهمّة الإنسان هي السّعي إلى تسخير الطّبيعة وترويضها وإخضاعها وفق ما تمليه عليه مصالحه الخاصّة، وذلك على غرار كلّ من روني ديكارت الّذي أراد للإنسان أن يتحوّل بفضل العلم والتّقنية إلى سيّد على الطّبيعة ومالك لها، وفرانسيس بيكون الّذي شبّه الأرض بـ«امرأة عامّة (Publique) علينا إخضاعها، واقتحام أسرارها وتقييدها تبعا لرغباتنا»[1].

ومن نافل القول، التذكير هنا بأنّ هذا التّصوّر يستند في الدّفاع عن رأيه وتعضيض حجّته إلى بعض نصوص كارل ماركس (أو رفيقه إنجلز)[2] على غرار النّصّ الآتي:

«مع تملّك المجتمع لوسائل الإنتاج، سيختفي الإنتاج البضاعيّ، ومعه سيطرة المنتوج على المنتجين؛ وتترك الفوضى داخل الإنتاج الاجتماعيّ مكانها للتّنظيم المخطّط الواعي، فيتوقّف الصّراع من أجل الوجود الفرديّ. وبهذا، ولأوّل مرّة، ينفصل الإنسان، بمعنى من المعاني، بشكل نهائيّ عن مملكة الحيوان، وينتقل من ظروف العيش الحيوانيّة إلى ظروف إنسانيّة حقيقيّة. فشروط الحياة المحيطة بالإنسان، والّتي كانت تتحكّم فيه، تصبح، الآن، خاضعة لسيطرة ورقابة النّاس الّذين يغدون، لأوّل مرّة، سادة فعليّين وواعين على الطّبيعة، لأنّهم، وبما هم، أسياد حياتهم الخاصّة بالمجتمع. فالقوانين المتحكّمة في ممارستهم الاجتماعيّة الّتي كانت تقف في وجههم، باعتبارها قوانين طبيعيّة وغريبة ومسيطرة عليهم، ستطبق آنذاك من طرف النّاس بكامل المعرفة، ومن ثمّة ستصبح خاضعة لسيطرتهم. فالحياة[...] الّتي كانت تقف أمامهم كما لو أنّها محدّدة بشكل مسبق من طرف الطّبيعة والتّاريخ، تصبح الآن نتيجة فعلهم الخاصّ والحرّ. والقوى الغريبة والموضوعيّة الّتي كانت تتحكّم في التّاريخ من قبل، تصبح خاضعة لرقابة النّاس. فمنذ تلك اللّحظة فقط، سيصنع النّاس تاريخهم

1- Azam (Geneviève) : «Pour une pensée de la limite L'exemple de la privatisation du vivant», Revue du MAUSS, Vol. No 21, no. 1, 2003, P.307. URL : https://www.cairn.info/revue-du-mauss-2003-1-page-301.htm.

2- خلافا لمن يحاولون التّمييز بين كارل ماركس وفريدريك إنجلز، مثل عالميْ السّياسة جون ستانلي (John L. Stanley) وديفيد ماكليلان (David McLellan)، نميل إلى المماهاة بينهما، بالنّظر لاشتراكهما في تأليف "**الإيديلوجيا الألمانيّة**" سنة 1846 و"**العائلة المقدّسة**" سنة 1845 و"**البيان الشّيوعيّ**" سنة 1848؛ ولكون فريدريك إنجلز قام بقراءة النّسخة النّهائيّة من كتابه "**ضدّ دوهيرينغ**" -والّذي ساهم كارل ماركس بكتابة فصل منه كاملا- على مسامع ماركس قبل طباعته ونشره. أكثر من ذلك، فإذا كان ماركس قد قام بتحرير مقدّمة كتاب إنجلز الموسوم بـ"**الاشتراكيّة: الطّوباويّة والعلم**" فقد بادر هذا الأخير بإعداد المجلّد الثّاني والثّالث من كتاب "**رأس المال**" انطلاقا من المسودّات والمذكّرات الّتي تركها له رفيقه كارل ماركس بعد رحيله سنة 1883. انظر بهذا الصّدد:

Bellamy Foster (John): «Le retour d'Engels», Contretemps, 28 novembre 2020. Disponible sur: https://www.contretemps.eu.

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

والتّصحّر،والتّغيّر المناخيّ، وانقراض الغزلان، وتسليع الأنواع (Espèces) ، والتّلوّث، والنّفايات الصّناعيّة، وإطلاق الموادّ السّامّة، وإعادة التّدوير، ونضوب مناجم الفحم، والأمراض، والاكتظاظ السّكّانيّ وتطوّر (أو التّطوّر المشترك Coévolution) الأنواع[1].

كلّ الاعتبارات السّالفة الذّكر، قادت جون بيلامي فوستر إلى التشديد على أنّ كارل ماركس، وخلافا لما يشاع، لم يفكّر في التّاريخ الاجتماعيّ (العالم الاجتماعيّ) بمعزل عن تاريخ الطّبيعة (العالم الطّبيعيّ) لكونه كان مسكونا علميّا وفلسفيّا بالهمّ الإيكولوجيّ من جهة. ومن جهة أخرى، فإنّ عناصر تفكيره بهذا الشّأن - وبالأخصّ انتقاداته الحادّة لعمليّة استنزاف التّربة باعتبارها تعبيرا موضوعيّا عن القطيعة الاستقلابيّة بين الإنسان ومحيطه الطّبيعيّ الّتي تخلقها المنظومة الرّأسماليّة- يمكنها أن تشكّل مفاتيح مهمّة لقراءة الأزمة الإيكولوجيّة الرّاهنة، ونقاط استدلال أساسيّة للاستجابة لتحدّياتها الحارقة. ومن ثمّة، يستخلص جون بيلامي فوستر ضرورة السّعي الحثيث إلى المصالحة بين نقد ماركس للاقتصاد السّياسيّ والإيكولوجيا السّياسيّة.

2-3- هنري بينا رويز:

على خطى العديد من المنافحين الشّرسين عن ماركس الّذين ينبّهون إلى أنّ «الّذي مات مع الاتّحاد السّوفياتيّ ليس الماركسيّة، بل كاريكاتورها المأساويّ»[2]، ويرفضون بذلك المماهاة بين النّظريّة الماركسيّة وممارسات الأنظمة السّياسيّة السّلطويّة الّتي حكمت باسمها وتدثّرت بردائها، سيكرّس الفيلسوف الفرنسيّ هنري بينا رويز قسطا كبيرا من جهده الفكريّ في محاولة تحرير كارل ماركس من جبّة ستالين وتبرئته من فظاعاته المرعبة[3]. وذلك بالتّصدّي لكلّ المحاولات الّتي سعت إلى اشتقاق مضامين النّظريّة الماركسيّة من ممارسات أنظمة ما كان يعرف بـ"بلدان الاشتراكيّة الموجودة فعليّا"، والّتي كان الحزب فيها، كما يقول روجيه غارودي، يتكلّم باسم الطّبقة، والجهاز (اللّجنة المركزيّة) يتكلّم باسم الحزب، والقادة يتكلّمون باسم الجهاز، والواحد (السّكرتير العامّ أو الأمين العامّ) يتكلّم ويفكّر باسم الجميع[4]. في هذا السّياق، يقول هنري بينا رويز في مقدّمة كتابه الّذي يحمل عنوانا دالّا وبليغا "**ماركس مع ذلك**": «منذ زمن بعيد، وبشكل خاصّ منذ انهيار الاتّحاد السّوفياتيّ، حاولت مثل الكثيرين فهم كيف أنّ مثالا للتّحرير (Idéal d'émancipation) ليس فقط للبروليتاريا بل أيضا للبشريّة بأكملها، أصبح إلى هذا الحدّ مشوّها، مَخُونا، مختزلا بصورة كاريكاتوريّة بفعل

1- Ibid.

2- غارودي (روجيه): **نحو حرب دينيّة ؟ جدل العصر**، ترجمة صياح الجهيم، دار عطيّة، الطّبعة الثّانية، بيروت، 1997، ص70.

3- ضمن هذا الأفق العامّ، أي السّعي إلى تحرير كارل ماركس ممّا سمّاه بـ" كاريكاتوره السّتالينيّ"، تندرج إصداراته الثّلاثة التّالية:

Peña-Ruiz (Henri): **Entretien avec Karl Marx**, Plon, Paris, 2012.

Peña-Ruiz (Henri): **Marx quand même**, Plon, Paris, 2012.

Henri Peña-*Ruiz,* **Karl Marx, penseur de l'écologie**, Le Seuil, Paris, 2018.

4- غارودي (روجيه): **نحو حرب دينية ؟ جدل العصر**، مرجع سابق، ص65.

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

مجلّة نقد وتنوير - العدد الثامن عشر - السنة الخامسة ـــــــ

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

المراجع:

باللّغة العربيّة:

1- أنجلز (فريدريك): **"ديالكتيك الطّبيعة"**، ترجمة توفيق سلّوم، دار الفارابي، بيروت، 1988.

2- حميش (سالم): **"في نقد الحاجة إلى ماركس"**، دار التّنوير، الدّار البيضاء، 2007.

3- غارودي (روجيه): **"نحو حرب دينية؟ جدل العصر"**، ترجمة صياح الجهيم، دار عطية، الطّبعة الثّانية، بيروت، 1997.

4- كليف (توني): "**رأسماليّة الدّولة في روسيا"**، ترجمة عمر الشافي، مركز الدّراسات الاشتراكيّة، 1998.

5- المحيفيظ (محمد): **"ماركس اليوم؟"**، مجلّة نوافذ، العدد 61-62، يناير 2016.

باللّغات الأجنبيّة:

1- Azam (Geneviève): **«Pour une pensée de la limite : L'exemple de la privatisation du vivant»**, Revue du MAUSS, Vol. N° 21, No.1, 2003.

2- Barrillon (Michel): **«Les marxistes, Marx et la question naturelle. Notes sur l'improbable éco-marxisme»**, Écologie & politique, Vol. 47, No. 2, 2013.

3- Béguin (Victor): **«En quel sens Marx est-il écologiste?»**, Contretemps, 5 Mai 2022.

4- Daniel (Bensaïd): **«L'écologie n'est pas soluble dans la marchandise»**, Contretemps, Ed. Textuel, N° 4, Mai 2002.

5- Foster (John Bellamy): **«Marx écologiste»**. Trad. Aurélien Blanchard, Joséphine Gross, Charlotte Nordmann. Editions Amsterdam/Multitudes, Paris, 2011.

6- Foster (John Bellamy): **«Le retour d'Engels»**, Contretemps, 28 Novembre 2020.

7- Foster (John Bellamy) et Burkett (Paul): **«Marx and the Earth»,** Haymarket, Chicago, 2017.

8- Friedrich (Engels): **«Anti- Dühring: M. E. Dühring bouleverse la science».** Edition socials, Paris, 1878.

9- Giddens (Anthony): **«A Contemporary Critique of Historical Materialism», Vol. 1: Power, property and the state**, University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1981.

10- Harribey (Jean-Marie): **«Marx, productiviste ou précurseur de l'écologie?»** Forum "Marx, 200 ans", L'Humanité, Paris, 17 février 2018.

موقع السؤال الإيكولوجيّ في المتن الماركسيّ وراهنيّته ـــــــ

27- Saïto (Kohei): **«La Nature contre le capital. L'écologie de Marx dans sa critique inachevée du capital»**, Editions Syllepse, 2021.

28- Schmidt (Afred): **«Le concept de nature chez Marx»**. Traduit de l'allemand par Jacqueline Bois, PUF, Paris, 1994.

29- Tanuro (Daniel): **«L'impossible capitalisme vert»**. La Découverte/Poche, Paris, 2012.

30- Tanuro (Daniel): **«L'écologie de Marx, Un chantier inachevé, une invitation à l'approfondissement»**, Gresea, Juin 2022.

31- Tanuro (Daniel): **«L'écologie de Marx, chantier inachevé»**, L'anticapitaliste, Nº 142, Janvier 2023.

32- Vert (Julien): **«Marx et l'écologie»**, Révolution, 18 avril 2013.